" من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه "

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا أشرف خلق الله أجمعين سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ورضي الله تعالى عن صحابته المهتدين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

تتردد هذه العبارة الشهيرة " من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه " بين بعض العوام ، وقد دارت حول صحة أو بطلان هذه العبارة حوارات منها ماكان جادا منضبطا لتوفّر عناصر الحوار السليمة ومنها ماكان سفسطائيا غوغائيا ، وقد حاورت بعضا من هؤلاء ومن هؤلاء وحتى لا نطيل في التدبيج ويتيسر لنا الدخول في بحث ومناقشة صحة أو بطلان هذه العبارة ومن ثم نصدر حكما بصحتها أو بطلانها نقول :

أولا : هذه العبارة امّا أن تكون مـن قـول معصـوم ، أو قـول مـن لاعصمة له إلاّ أنها لم تصح نسبتها لمعلوم فضلا عن نسبتها لمعصوم ، فهي عبارة مثل غيرها من العبارات التي لا يُعرف لها قائل على وجه القطع .

ثانيا : طالما لم يثبت أنها من قول معصوم فلا يظهر لنـا منهـا سـوى ثلاثة وجوه لا رابع لها :

* الوجه الأول : أن تكون العبارة صحيحة لجواز صدور صـحيح القول ممن لا عصمة له .

* الوجه الثاني : أن تكـون العبـارة باطلـة ويقـوم بطلانهـا بإنتفـاء العصمة عن قائلها وسقوطها على ميزان التحقيق .

* الوجه الثالث : أن تكون العبارة صحيحة من وجـه باطلـة مـن آخر

إن صححنا هذه العبارة فلا بد أن يقوم تصحيحنا لها على مصحح إذ لا صحيح إلاّ بمصحح ولا ضعيف إلاّ بمضعّف ، فإن قيل : هذه عبارة صحيحة . قلنا : ماهو المصحح ؟

فإن قيل : من يعتمد في تحصيل علمه على الكتاب فخطؤه أكثر من الصواب .

قلنا : تحديد الخطأ بالأكثر " حُكم " ولا تقوم الأحكام إلّا على مبانيها الصحيحة فما هو مبنى هذا الحكم ؟

فإن قيل : يقوم هذا الحكم على عدم وجود الشيخ المرشد الدال على الصحيح .

قلنا : الشيخ نفسه غير ممتنع عن الوقوع في الخطأ ، فيكون التلميذ تابع شيخه على الخطأ إذ لا يخفى أن كثيرا من الأخطاء في مفاهيم التلاميذ مصدرها شيوخهم وقد قال هذا غير واحد من أهل العلم وسنذكر شيئا من أقوالهم عن أخطاء الشيوخ وزلات العلماء ومتابعة أتباعهم على هذه الأخطاء والأخذ بها والتسليم لها .

فإن قيل : إن الشيخ المؤهل المتمكن قل أن يخطئ ، وطالما قل خطأ الشيخ بالضرورة قل خطأ التلميذ ، أمّا من شيخه كتابه فخطؤه أكثر لامحالة .

قلنا : أولا قد ثبت أن الخطأ قد يكون مصدره الشيخ نفسه إذ أنه غير ممتنع عن الوقوع في الخطأ ، فيتابعه تلميذه على هذا الخطأ ، أمّا الزعم بأن قلّة خطأ الشيخ تعني قلّة خطأ التلميذ فلا يصح ، إذ لاتلازم بين فهم الشيخ وفهم تلميذه ، والقول بأن قلّة خطأ الشيخ المؤهل تعني قلة خطأ تلميذه يلزم منه " إتحاد " فهم الشيخ والتلميذ وهذا غير متحقق في كل مسألة على أقل تقدير فالتلميذ قد لايفهم قول شيخه على وجه صحيح فيقع في الخطأ .

ثانيا : من كان شيخه كتابه جاز وقوعه في كثير من الخطأ لا محالة لعدم وجود الشيخ الكفئ المرشد الدال ، إلاّ أنه ليس بالضرورة أن يكون الخطأ " أكثر " من الصواب عنده ، فهناك فرق بين مدلول كثير ومدلول أكثر فهناك فرق شاسع بين أن نقول :

فلان في قوله " كثير" من الخطأ ، وأن نقول : فلان " أكثر " مايقوله خطأ ، وبهذا يظهر أن القول عن كثرة الخطأ وقلّة الصواب مما نصّت به العبارة انما هو أمرٌ " ظنّيٌ " والأحكام لا تُبنى على المظنون

لذلك لايصح الحكم بكثرة الخطأ وقلّة الصواب إلاّ بعد تقصّي وتحقق أمّا أن نقيم حكما على المظنون فهذا مما لايسوغ بحال .

وقد سئل الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله تعالى عن هذه العبارة وقد أجاب بما نصّه : " هذا صحيح أن من لم يدرس على أهل العلم ، ولم يأخذ عنهم ، ولا عرف الطرق التي سلكوها في طلب العلم ، فإنه يخطئ كثيراً ، ويلتبس عليه الحق بالباطل لعدم معرفته بالأدلة الشرعية والأحوال المرعية التي درج عليها أهل العلم ، وحققوها وعملوا بها أما كون خطئه أكثر فهذا محل نظر، لكن على كل حال أخطاؤه كثيرة لكونه لم يدرس على أهل العلم ولم يستفد منهم ، ولم يعرف الأصول التي ساروا عليها فهو يخطئ كثيراً ، ولا يميز بين الخطأ والصواب في الكتب المخطوطة والمطبوعة " أهـ

* قلت : علينا أن نلاحظ بإهتمام قوله " أما كون خطئه أكثر فهذا محل نظر لكن على كل حال أخطاؤه كثيرة " أهـ ، ولذلك قلنا فيما تقدّم بأن هناك فرق ظاهر .

أما الشيخ ابن عثيمين فقد سئل عن هذه العبارة أيضا فقال مانصه : " لاشك أن العلم يحصل بطلبه عند العلماء وبطلبه في الكتب لأن كتاب العالم هو العالم نفسه فهو يحدّثك من خلال كتابه ، فإذا تعذّر الطلب

على أهل العلم ، فإنه يطلب من الكتب ولكن تحصيل العلـم عـن طريـق العلماء أقرب من تحصيله عن طريق الكتب ، لأن الذي يحصل عن طريـق الكتب يتعب أكثر ويحتاج إلى جهد كبير جدا ، ومع ذلك فإنـه قـد تخفـى عليه بعض الأمـور كـما في القواعـد الشرـعية التـي قعّـدها أهـل العلـم والضوابط ، فلابد أن يكون له مرجع من أهل العلم بقدر الإمكان ، وأمّا من كان دليله كتابه فخطؤه أكثر مـن صـوابه فهـذا لـيس صـحيحا عـلى إطلاقه ولا فاسدا على إطلاقه ، أما الإنسان الـذي يأخـذ العلـم مـن أي كتاب يراه ، فلاشك أن يخطئ كثيرا ، وأمّا الذي يعتمد على كتـب رجـال معروفين بالثقة والأمانة والعلم فإن هذا لايكثر خطؤه بل يكون مصيبا في أكثر مايقول " أهـ

* قلت : نستدل بموضع الشاهد في قوله " فهذا لـيس صـحيحا على إطلاقه ولا فاسدا على إطلاقه " أمّا قوله : " وأمّا الذي يعتمـد عـلى كتب رجال معروفين بالثقة والأمانة والعلم فإن هذا لايكثـر خطـؤه بـل يكون مصيبا في أكثر مايقول " أهـ ، فلا يخفى عـلى بصـير قصـده بكتـب الرجال المعروفين بالثقة والأمانة والعلم .

" هل العبرة بأثر الخطأ أم بكثرته ؟ "

ليست العبرة أصلا بخطأ من كان شيخه كتابه ولا بكثرة وقوعه في الخطأ أو قلّته ، بل العبرة بالنتائج المترتبة على هذا الخطأ ، فإنعكاس خطأ الشيخ على التلميذ أضر على الأمّة والمجتمع وأشد فتكا به من خطأ من كان شيخه كتابه ، ولذلك قال كثير من أهل العلم وحذّروا من زلات العلماء وقالوا " زلّة العالِم زلّة عالَم " أي أن الشيخ إن وقع في الخطأ يتابعه عليه تلاميذه فيؤمنون ويصدّقون بقول شيخهم الخاطئ فتترسّخ في أذهانهم صحة هذا القول الخاطئ .

قال ابن قيّم الجوزية في أعلام الموقّعين : " وأن العالم قد يزل ولا بد إذ ليس بمعصوم ، فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزل قوله منزلة قول المعصوم ، فهذا الذي ذمه كل عالم على وجه الأرض وحرموه ، وذموا أهله وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم ، فإنهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه وليس لهم تمييز بين ذلك فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد فيحلّون ما حرم الله ويحرّمون ما أحل الله ويشرعون ما لم يشرع ولا بد

لهم من ذلك إذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه ، والخطأ واقع منـه ولا بد وقد ذكر البيهقي وغيره من حديث كثير هذا عن أبيه عن جده مرفوعا " اتقوا زلة العالم وانتظروا فيئته " وذكر من حديث مسعود بن سعد عـن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن ابن عمر قـال : قـال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : " أشد ما أتخوف على أمتي ثلاث : زلة عالم ، وجدال منافق بالقرآن ، ودنيا تقطع أعناقكم " ومن المعلـوم أن المخـوف في زلـة العـالم تقليده فيها إذ لولا التقليد لم يخف من زلة العالم على غيره . فإذا عرف أنها زلة لم يجز له أن يتبعه فيها باتفاق المسلمين ، فإنه اتبـاع للخطـأ عـلى عمـد ومن لم يعرف أنها زلة فهو أعذر منه وكلاهما مفـرط فـيما أمـر بـه وقـال الشعبي : قال عمر: يفسد الزمان ثلاثة : أئمة مضـلون وجـدال المنـافق بالقرآن والقرآن حق ، وزلة العالم " أهـ

* قلت : الخطر في تقليد" زلّة العالم" أعظم وأشد ، فبهذا الخطأ قد يحلل حراما ويحرم حلالا ، وينتشرـ هـذا الخطـأ في طائفـة مـن النـاس أو المجتمع تقليدا لهذا الشيخ ويترتّب على ذلك مفسدة في الـدين ، أمّـا مـن كان شيخه كتابه فلا أتباع له فيؤخذ منه شيئا ، وإن قال قولا لايؤخـذ بـه على محمل التسليم ، أمّا قول الشيخ فيأخذه تلامذته على محمل التسليم

كما قال ابن قيم الجوزية : " فإنهم يقلّدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل فيه " خصوصا عند من آمنوا بالمهازل والمخزيات وصدّقوا الطوام والمرديات ، كقولهم " بالتسليم المطلق للشيخ " وأن يكون المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل يقلّبه كيف شاء ، ولا حق للمريد أن ينكر على شيخه ولو إنكارا قلبيا .

فمن آمنوا بمثل هذه المخاريق والمهازل لا ريب أنهم سيأخذون بعض الأخطاء من أفواه بعض شيوخهم من الوعاظ والدعاة على محمل التسليم وكأن قول شيخهم وحي منزل على نبي مرسل .

وقد تكاثرت المرويات في التحذير من " زلات العلماء " وأخطاء الشيوخ لما لها من عظيم الضرر وبالغ الأثر ، ولم يرد نصٌ نبويٌ أو قولٌ مأثورٌ يقول : " من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه " فالنبي ى والصحابة رضوان الله عليهم وكبار التابعين حذّروا من اتّباع زلات العلماء .

ولم يثبت عن أحد منهم أنه قال : " من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه " منسوبة إليه ، نعم : هناك بعض العلماء ممن نقلوا هذا العبارة مجهولة المصدر وعلّق عليها برأيه مع أننا نقول بضرورة الرجوع الى أهل العلم " الأكفاء " لا الرجوع الى الأدعياء ممن جعلوا من أنفسهم

من مشائخ الطريق وأهل التحقيق وهم من الوعّاظ الذين لايحسنون سوى شقشقة الخطب والإحتجاج بموضوع المرويات وهم لايعلمون .

وأخيراً نقف على رأي الإمام الحداد رضي الله عنه في الشيوخ وأخذ العلوم من الكتب ، قال الإمام الحداد رضي الله عنه عن الشيخ وعن قراءة الكتب من دون شيخ ، عندما سئل كما في " النفائس العلوية المسائل الصوفية " فكان جوابه على المسألة (١٠٨) مانصه :

" واعلم أن من اتسع نظره في الكتب المؤلفة في أنواع العلوم وجد فيها كثيراً مما يشبه هذه المسائل ، وربما أثارت عنده شيئاً من الأوهام والإشكالات ولا ينجيه من ذلك إلا أن تكون له بصيرة منيرة وقريحة صحيحة وقد أحرز معتقده من قبل بأخذ عقيدة جامعة مما أجمعت عليه أهل السنة " أهـ

* قلت : نلاحظ أنه لم يُلزم كل من يقرأ في الكتب بالذهاب الى شيخ ليفنّد له الاوهام ويحل له الاشكال ، والدليل قوله : " وربما أثارت عنده شيئاً من الأوهام والإشكالات ، ولا ينجيه من ذلك إلا أن تكون له بصيرة منيرة وقريحة صحيحة " أهـ .

فهو يـرى ان البصـيرة المنـيرة والقريحـة الصـحيحة تنجـي مـن الاوهام والاشكالات التي في بعض الكتب ، فمن له بصيرة منيرة وقريحة صحيحة لايحتاج لشيخ في كل مسألة

قد يقال : ان الامام الحداد رضي الله عنه حث في مواضع أخـرى على التزام الشيخ وأن لابد من الشيخ للمريد كما في قوله :

ولا بد من شيخٍ تسير بسيرهِ ** إلى الله من أهل النفوس الزكية
من العلماء العارفين بربّهم ** فإن لم تجد فالصـدق خير مطيّـة

* قلت : أولا : لاحظتُ كثير من طلبة العلم يستدل بطرف البيت الاول (ولابد من شيخ تسير بهديه) ويترك ما تلاه من قـول ، وهـذا أمّـا بجهل أو بتلبيس على العوام .

كما ان قوله هذا لا يتنافى مع قوله : " وربما أثـارت عنـده شـيئاً مـن الأوهام والإشكالات ولا ينجيه من ذلك إلا أن تكون لـه بصـيرة منـيرة وقريحة صحيحة " أهـ . بدليل أنه لم يقـل : " ولاينجيـه مـن ذلـك إلاّ أن يكون له شيخا " فهو يرى أن البصيرة المنيرة والقريحة الصـحيحة منجيـة من الاوهام والاشكالات ، وهذه مساواة منه رضي الله عنه بين "البصيرة المنيرة والشيخ العارف " إذ الثمـرة المرجـوّة مـن الشـيخ العـارف ومـن

البصيرة المنيرة من هذا الوجه واحدة ، وهي " النجاة من الاوهام والاشكالات " فالشيخ العارف ينجي منها والبصيرة المنيرة تنجي أيضا فالثمرة واحدة .

ثانيا : أنه يقصد به المريد المبتدئ الذي لم تكن لديه بصيرة منيرة ولا قريحة صحيحة ولم يكن له سابق معرفة بتحصيل العلوم وقراءة الكتب وبحث المسائل العلمية ومعرفتها فمثل هذا يفضّل ذهابه لشيخ عارف .

ثالثا : قد حدد الإمام الحدّاد رضي الله عنه الشيخ الذي لابد من السير بسيره ووصفه كما في الأبيات فقال " من أهل النفوس الزكية " فهذا أول شرط يشترطه ، ثم شرط شرطا آخرا فقال : " من العلماء العارفين بربهم " ولاشك في وجود ممن تحقق بهذه الشروط على الأقل من الخاملين أمّا من إدّعى أو أُدّعي له ذلك فيلزم التأكّد من تحقق هذه الشروط ؟ إذ ليس كل من وُصِف أو وصفته العوام والأتباع أو أشيع عنه بأنه من العارفين بالله تعالى يُسلّم له .

رابعا : قوله : " فإن لم تجد فالصدق خير مطيّة " إعذار لمن لم يجد شيخا بتلك الشروط وهي : " من أهل النفوس الزكية _ من العلماء

العارفين بربّهم " فالصدق خير للمريد وطالب العلم من شيخ غـارق في أوحال الدنيا أو المبتلى بحـب الظهـور والجـاه والتعصّـب أو ممـن يحسـن شقشقة الخطب ورصف العبارات والسجع كما هو حال الكثير من شـيوخ ودعاة ووعاظ هذا الزمن . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلـه الطيبـين الطاهرين ورضي الله تعالى عن صحابته المهتدين والحمد لله رب العالمين .

كتبه : جمال بن محمد بن عبدالرحمن العطاس

٢٠ رمضان ١٤٣٢هجرية